

على عرش الشهرة

ليس جون ديوى مجهولاً من جمهور المثقفين في مصر والشرق العربي ، إذ نُقلت آراؤه في التربية منذ زمن طريل ، واتخذها المعلمون الذين درسوا في معاهد التربية نبراساً لهم . وترجمت له كتبٌ كثيرةٌ إلى العربية ، منها « الديمقراطية والتربية » ، و « الخبرة والتربية » ، و « الحرية والثقافة » ، و « تجديد في الفلسفة » و « آراء توماس جيفرسون الحية » . وعلى الرغم من أن أحداً غيره من الفلاسفة لم يظفر بترجمة هذا العدد من مؤلفاته إلى العربية — فيما عدا أفلاطون وأرسطو من القدماء وقلة من المحدثين — فلم يُكتب عنه كتابٌ مستقلٌ يحلل فلسفته ، ويشرحها ، ويقدمها إلى الجمهور العربي . ولعل ذلك يرجع إلى وفرة تأليفه ، ودقة مذهبه ، ووعورة أسلوبه .

وقد اتصلتُ بفلسفة ديوى صلة مباشرة حية عن طريق أحد تلاميذه ومريديه هو الأستاذ « جورج ديكهويزن Dykhuizen » ، مواطنٌ ديوى في فرمونت والذي كان متتدباً للتدريس بقسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٥٣ . وقد ألقى في مصر محاضرة عامة عنوانها « جون ديوى : فيلسوف وورب أمريكي » ، فانبعثت روح الأستاذ في تلميذه ، وسرت عن طريق المحاضر إلى جمهور السامعين ، وظفرتُ في تلك الليلة بشعاع من فلسفة ديوى الحية عن طريق السماع . وأنت تعلم أن الفلسفة التي تُقرأ في الكتب إنما هي فكرٌ يخالو من الحياة ، ولفظٌ متجرد من الروح .

فلما سافرت إلى أمريكا أستاذاً زائراً عام ١٩٥٦ اتصت بأساتذة الفلسفة الذين عرف بعضهم ديوى شخصياً وتأثر به وكتب عنه ، أو عرفه عن طريق بعض تلاميذه ؛ وهم على الجملة ، لأنهم أهل بلد واحد ، أعرف بفيلسوفهم

وأقدر على فهم دقائق مذهبه وأسرار تفكيره ، وأدق من غيرهم في التمييز بين المعاني المتشابهة المتقاربة . مثال ذلك أن الأستاذ « لويس هان » عميد كلية الآداب بجامعة واشنطن يؤول مذهبه على أنه « السياقية Contextualism » على حين يفهمه الأستاذ « هستون سميث » في تلك الكلية أيضاً على أنه « مذهب العمليات العقلية Operationalism » . ويرى البعض أنه « الأدائية » أو « البرجماتية » أو « التجريبية » وهكذا . ويذهب بعض الأمريكيين إلى أن ديوى فيلسوف تربوية ، وبخاصة أساتذة التربية وهم كثيرون ، ويذهب البعض الآخر أنه فيلسوف منهج ، أو منطق ، أو اجتماع ، إلى غير ذلك .

ويرى كثير من أساتذة الفلسفة في أمريكا أن الكتابة عن فلسفته مضللة ، وأن الأسلم لتصوير مذهبه اختيار نصوص من كتبه تعرض على القارئ ، مع التقديم لها بمقدمة موجزة تبين الخطوط العامة لفكره . وهذا ما فعله كثيرون منهم بالفعل . والعلة في ذلك خشية التأويل . لأن كل فلسفة فإنما هي شخصية ، وهذا فصل ما بينها وبين العلم . وفلسفة ديوى شخصية^١ ، والفلسفة التي تكتب عن ديوى شخصية^٢ كذلك . فنحن حين نكتب عنه ونصور مذهبه ، إنما نصور ما نراه نحن أن هذه هي فلسفته . ولكننا سنحاول ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً أن نكون موضوعيين ، وأن نعرض ما نعتقد أنه تصوير أمين صادق لفلسفة ديوى^(١) .

وقد سلكنا في الكتابة عنه مسلكاً جديداً . كان يمكن أن نتبع تأليفه على مدى حياته ، ونلخص رأيه في كل كتاب ، فيتضح من ذلك تطوره التاريخي . وهذا كما ترى مسلك معروف مأمون . وكان يمكن أن نعتمد على المؤثرات الفكرية التي صاغت تفكيره في شبابه ، وهي في جملتها ثلاثة البراجماتية

(١) ليس من المناسب في مجال الذكرى المثوية للرجل أن نوجه إليه سهام النقد ، وبخاصة لأن الكتاب الذي نقدمه ليس من الضخامة بحيث يتسع للعرض والنقد مآ . ومن شاء أن يطلع على نقد للمذهب فليقرأ كتاب كرومر « علمية جون ديوى » .

الأمريكية ، والتجريبية الإنجليزية وبخاصة مذهب التطور ، والمثالية الألمانية . ثم نرى كيف راجع ديوى نفسه ، وتخلص من بعض هذه المؤثرات ، ثم طلع بمذهب جديد . وكان يمكن أن نتخذ من بعض أفكاره الرئيسية محوراً لتدور عليه فلسفته ، كالتربية ، أو المنهج العلمى فى تطبيقه على الحياة الاجتماعية ، أو الديمقراطية ، أو غير ذلك . ولكننا آثرنا أن نجعل « الرجل » محور فلسفته ، نتناوله أولاً فى حياته وسيرته ، ثم فى جوانبه المتعددة الألوان ، فنصوره مريباً ، وفيلسوفاً ، واثراً على الفلسفة التقليدية ، وأخلاقياً ، وعالملاً اجتماعياً . . .

ويعد جون ديوى من أبرز فلاسفة العصر الحاضر . لا فى أمريكا فقط ، بل فى جميع أنحاء العالم . فهو ولا ريب فيلسوف أمريكا المعبر عن اتجاهاتها العقلية ، وهو إلى جانب ذلك وبحكم آرائه فيلسوف عالمى ، أو كما يسميه الأستاذ إروين إدمان « أحد صناعات التراث الأمريكى » ، ثم يضيف إلى ذلك : « يعترف بديوى اليوم أحد صناعات الفكر المعاصر أو أحد الذين جددوا صياغته ، ليس بين أوساط الفلاسفة المحترفين فقط بل فى القانون والتعليم والفن »^(١) . ويقول الأستاذ ديكهويزن : « تعتمد شهرة جون ديوى فى أساسها على مساهماته البارزة فى عالم الأفكار ، فهو يعد أحد كبار الفلاسفة الحقيقيين فى القرن الحاضر ، وهو أبرز المفكرين التربويين فى أمريكا . وقد امتد أثر فلسفته إلى ميادين شتى من البحث ، كعلم النفس ، والعلوم السياسية ، والاقتصاد السياسى ، وعلم الاجتماع ، والدين ، والتشريع والتربية ، بحيث أحست جميعاً بقوة فكره وأصالته . . . »^(٢) . وكتب الأستاذ جون تشايلدز ، أحد تلاميذ جون ديوى ، يحتفل بذكراه عقب وفاته قال : « كتب الأستاذ موريس كوهين مقالاً عن الفلسفة الأمريكية صرح فيها بأن أمريكا إذا كان لها أن نصطنع طريقة بعض الدول الأوروبية فتنشئ كرسياً وطنياً للفلسفة ، فلن تجد إلا شخصاً واحداً

Irwin Edman : John Dewey, p. 21. (١)

G. Dykhuizen : in Vermont Life magazine — 1949. (٢)

يشغله هو جون ديوى . ولا ريب أن تقدير الأستاذ كوهين لصداقة ديوى فى الفلسفة الأمريكية مما يوافق عليه معظم المشتغلين بهذا الفن .

ولم يكن ديوى معترفاً به كأبرز مفكرينا فقط ، بل كان الممثل الذى تجسدت فيه معظم الأمور التى نعلها أمريكية ، ففيه مزيج من البرجماتية التى تؤكد ميزان النتائج العملية ، والمنهج العلمى ، والاختراعات التكنولوجية ، والديمقراطية باعتبارها شكلاً للحكومة وطريقة للحياة على حد سواء ، والروح الأمريكية الأولى بما كانت تمتاز به من إيمان بأن الرجل العادى يستطيع أن يبنى بالتعاون حضارة أكثر إنسانية . . . »^(١)

فإن قلت : ولكن رأى هؤلاء الجماعة الذين ذكرتهم فيه من التجيز لمفكر من أبناء وطنهم ما لا يحتاج إلى دليل ، قلنا : لقد شهد له المفكرون من الأجانب عن أمريكا ، مع العلم أن تقدير الأحياء وهم على قيد الحياة نادر الوقوع . فهذا « بارودى » يكتب من فرنسا يقول : « إنه على الرغم من أن قلة قليلة من آثار ديوى — فيما عدا كتبه فى التربية — قد نُقلت إلى الفرنسية ، فإن فلسفته معروفة معرفة جيدة فى فرنسا وهى تلقى أعظم التقدير »^(٢) . ولعلك تقول ، ولكن الفرنسيين قوم مهذبون يميلون إلى الثناء ؛ فأليك رأى مفكر لا يرحم فى نقده ، ولا يعترف إلا بنفسه ، نعى برتراند رسل . فقد افتتح الفصل الثلاثين الذى كتبه عن جون ديوى فى كتابه « تاريخ الفلسفة الغربية » . قائلاً : « إن ديوى الذى ولد عام ١٨٥٩ يُعترف به على وجه عام أنه رأس الفلاسفة الأحياء فى أمريكا . وإنى لأوافقهم على هذا التقدير تمام الموافقة ، فقد كان له تأثير عميق لا بين الفلاسفة فقط بل على طلاب التربية والجمال والنظريات السياسية »^(٣) ويقول فى مقالة أخرى : « ولهذا الفيلسوف وجهة نظر — حيث تكون هذه النظرة

Journal of Educational Theory — Vol. IV, Number 3, July 1954. (١)

in Schilpp : The Phil. of J. Dewey, p. 229. (٢)

Bertrand Russell : Hist. of Western Philosophy, p. 819. (٣)

متميزة — تتفق مع عصر التصنيع والعمل الجماعي . ومن الطبيعي أن يكون أثره الأكبر في الأمريكيين ، كما يقدره كذلك قوم يأخذون بعناصر التقدم مثل أمة الصين والمكسيك ممن يحاولون الانتقال السريع من حياة العصر الوسيط إلى التجديد الحديث . وتشبه شهرته ، لامذهبه ، تلك الشهرة التي تمتع بها بنّام في زمانه » (١) .

فإذا صرفنا النظر عن الغمزات اللاذعة التي اشتهر بها برتراند رسل ، بتي أنه اعترف بالفضل والشهرة والزعامة الفلسفية لا في أمريكا فحسب بل في الدول الأخرى التي تريد الأخذ بالحضارة الحديثة . وهذا شيء طبيعي من فيلسوف إنجليزي يعترز بقوميته ، ويتمسك بتقاليد الإنجليز ، وله إلى ذلك فلسفته الخاصة ، ووجهة نظر في المنطق الرمزي لم يوافق عليها ديوى ، كما سنرى بعد قليل عند الكلام عن ديوى المنطقي .

ومع ذلك فلم يسلم فيلسوف من النقد . وقديماً نقد أرسطو أستاذه أفلاطون في سبيل الحق . وسهام النقد التي توجه إلى الفيلسوف من كل مكان ودليل على شهرته وآية على عظمته ، لا على ضعفه وضآلة شأنه . وفي الكتاب الذي نقلنا عنه رأى بارودي ورسل مقالات أخرى كثيرة بأقلام أعلام الفكر في أمريكا وأوربا من مثل سانتايانا وهوايتيد وغيرهما ، بعضها يشرح فلسفة ديوى ويحللها ويقدمها للجمهور ، وبعضها ينتقد هذه الفلسفة انتقاداً مرّاً . وقد انبرى لم ديوى في آخر الكتاب فشكر المادحين والقادحين على حد سواء ، ورد على نقد الناقدين في فصل طويل بعنوان « الخبرة والمعرفة والقيمة » لخص فيها فلسفته ، ووضّح مذهبه ، ودافع فيها عن نفسه ، فالتقى الفكر بالفكر في أجمل ندوة عقلية وأروعها ، كما كانت سنة سقراط وأفلاطون في الحوار والجدل . وهذه لعمرى هي السيرة الفلسفية كما ينبغي أن تكون ، السيرة البعيدة عن التعسف اللجماطيقي

وعن سوقية التفكير العامى .

وبعد ، فإنى أود أن أنبه على أمرين راعيتهما فى هذا الكتاب ، الأول العناية بعرض البرجماتية (١) عرضاً دقيقاً واسعاً بعض الشيء ليطلع قراء العربية على هذا المذهب المعبر عن الفلسفة الأمريكية فى جملتها ، والثانى التزام عبارات ديوى نفسه فى أكثر المناسبات لأنه هو نفسه كان يشكو من عدم أمانة الناقلين لمذهبه .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى أمانة العرض ودقة التصوير .

• • •

رأينا فى استهلال هذا الفصل أن ما ترجم إلى العربية من كتبه خمسة هى (١) الديمقراطية والتربية (٢) الخبرة والتربية (٣) الحرية والثقافة (٤) تجديد فى الفلسفة (٥) آراء توماس جيفرسون الحية .

واليوم ونحن فى سنة ١٩٦٨ نجد أنه قد ترجمت له تسعة كتب أخرى هى (١) البحث عن اليقين (٢) المنطق أو نظرية البحث (٣) الفن خبرة (٤) الطبيعة البشرية والسلوك الإنسانى (٥) الفردية قديماً وحديثاً (٦) المدرسة والمجتمع (٧) التربية فى العصر الحديث (٨) مدارس المستقبل (٩) المبادئ الأخلاقية فى التربية .

(١) أقدم ما كتب بالعربية فى البرجماتية كتاب « الفرائع » ليعقوب فام ونشرته لجنة التأليف منذ ربع قرن ، ولكن عنوانه نفسه يدل على تحريف المنهج ، وأحدث ما كتب فى شيء من التطويل كتاب الدكتور زكى نجيب محمود « حياة الفكر فى العالم الجديد » والفصل الذى كتبه الأستاذ إسماعيل القباني فى كتاب « التربية عن طريق النشاط » عن فلسفة جون ديوى .